15

جنوه 2001:

مع أي جانب أقف؟

هايدي جولياني

أنا أم كارلو جيولياني الذي قتلته الشرطة في جنوة في 20 يوليو 2001. اسمي أديليدي كاجيو، وهايدي لأولئك الذين يعرفونني جيداً. أبلغ من العمر 61 سنة، وأنا مدرسة متقاعدة للمرحلة الابتدائية. ولدت خلال الحرب العالمية الثانية ولم أجرب يوماً الجوع أو الخوف أو الألم أو التدمير أو العنف. أنا فقط أسمع عن هذه الأشياء من خلال القصص التي يخبرونني عنها أصدقائي وأقاربي أو من خلال الكتب أو الصور أو الأفلام.

ذهب والدي وهو رجل دين إلى الحرب العالمية الأولى وهو في الثامنة عشرة من عمره يقود السيارات المليئة بمواد شديدة الانفجار إلى ساحة المعركة وكان لا يثق بالسياسة، لكنه ترك لأولاده احترام العدل والحماسة في العمل وكرهاً للغطرسة وأكاذيب الفاشية. علمتنا أمنا حب الموسيقى والفن والثقافة والهدوء في المنحدرات الخضراء لجبالها السويسرية.

obeikandl.com

منذ أن كنت طفلة كان من السهل على أن أقرر في أي جانب يجب علي أن أكون. أول مظاهرة ذهبت إليها كانت ضد الحرب. دعمت فيتنام الصغيرة التي كانت تناضل بقوة من أجل تحرير نفسها من الاستعمار الفرنسي، ثم في دفاعها عن نفسها ضد العدوان الأمريكي الفظيع. عشت سنوات المنفى بعيداً عن الديكتاتورية العسكرية مع رفقائي اليونانيين الذين تقاسمت معهم آلامهم من عنف الديكتاتورية وعدم الشرعية. ثم لاحقاً تظاهرت ضد عنف وظلم ديكتاتورية بينوشيه في تشيلي. إذن الحروب والديكتاتوريات شكّلت العديد من السنوات في حياتي، وكانت هذه الحروب والديكتاتوريات قد نشأت بسبب رغبة أفراد قلائل في السلطة أو بسبب مصالح الشركات الكبيرة والتحويل الإجباري لأنظمة اقتصادية. نستطيع أن نلتقط أي مثالٍ من أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى، الأقليات السود في الولايات المتحدة، التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، الصين بعد ماو، تفكك العملاق السوفيتي، الحروب القبلية في إفريقيا، التبت، فلسطين، الشيشان يوغسلافيا السابقة، أفغانستان . لا تستطيع العيش كما لو كان بقية العالم غير موجود . عندما كبر أولادي، عرفوا أيضاً في أي جانب يمكن لهم أن يقفوا.

عُقدت قمة الثمانية الكبار في يوليو 2001م في جنوة أو لنقل كما كتب أحدهم G1+7 تعرضت المدينة لغزو عسكري بسبب هذا الحدث. لقد دُمرت واغتصبت. فصلت البلدة القديمة، وهي إحدى أكبر المدن ازدحاماً بالسكان في أوروبا، عن المناطق الأخرى

والطرق والمساكن، وأيضاً عن المستشفيات والمحلات وأماكن العمل والحياة بواسطة أسوار يصل ارتفاعها إلى خمسة أمتار، وحتى فتحات المجاري تم تلحيمها والطرق العامة تم تحويلها إلى طرق أخرى.

أعتقد أن هذا كان سبباً كافياً للنظر للقمة على أنها نوع من الجنون وخاصة فيما يتعلق بقرارهم حول مكانها وحول نوع خشبة المسرح التي قرروا التمثيل عليها. أراد "الثمانية الكبار" مع طفيليهم وما زالوا يريدون المضي قدماً في التخطيط واتخاذ القرارات لاقتصاد العالم، وتركيز السلطة والثروة في يد الغرب وخاصة في يد الولايات المتحدة، ويحكمون على الجزء الجنوبي من العالم بالفقر المدقع. أرادوا وما زالوا يريدون يداً حرة، فلا عقبات يجب أن تقف في طريقهم.

الأسباب التي تدعو إلى معارضة كل هذا عديدة ومهمة جداً، مثل حياة الملايين من الناس الذين حُكِم عليهم بالعطش والجوع والمرض والحرب.

كيف تكون غير مبال وأنت تشاهد الدمار والهلاك يحيطان بالأرض وأنت لا تكاد تُسمِع كلمة (لا)، ولا تحاول أن تضع الرمال في العجلات التي تدهس حقوق شعوب كاملة.

قُتِل ابني خلال قمة مجموعة الدول الثمان في جنوه في 20 يوليو 2001 عندما كان يحاول مع العديد من الشباب وغير الشباب إيقاف هجمات الشرطة العنيفة ضد أمكنة التجمع والمسيرات التي كانت تشجب طبيعة القمة غير الشرعية، وكانوا يرفعون شعارات

عن ديون دول العالم الثالث، وحق الحصول على الماء، واستغلال الثروات الطبيعية، والإيدز. هذا هو السبب الذي دفعني إلى رفع صوتي بالاعتراض. أنا أكتب وأتكلم لأني أم كارلو جولياني. حتى لو لم يمت ابني فأنا مقتنعة بأن السبب الوحيد لوجود مجموعة الدول الثمان هو تغطية المصالح الاقتصادية الضخمة التي تسلب يومياً حق الملايين من الرجال والنساء والأطفال في الحياة.

عملت في مدرسة ابتدائية لمدة 35 سنة. عندما كنا نتحدث مع الأطفال حول الحقوق والواجبات كنا نبدأ من الحاجات الأساسية: الطعام، والأرض التي تعيش فيها وتعمل، والحاجة إلى المسكن وحماية النفس من المطر والبرد والأمراض، لكننا أيضاً كنا نتكلم عن الحاجة إلى التعاون، والتعليم الذاتي، والحق في الحرية والسلام.

الأطفال الصغار لهم حس غريزي بالعدالة. من الشيء الطبيعي عندهم أن يتمتع الجميع بالحقوق نفسها، لكنه ليس الشيء نفسه عند أولئك الذين يحكموننا: كلما كثرت المسؤوليات عند الناس أصبحوا غير مسؤلين في تصرفاتهم. انظر فقط حولك، حتى في دولنا التي تصف نفسها بالمتحضرة والمتطورة، وحتى في العديد من مدننا الغنية.

في كل مرة يسألني شخص ما التعبير عن وجهة نظر كارلو، أخبره أن عليه هو أن يعبّر عن وجهة نظره؛ لأنه لا أحد يملك الحق في التحدث عنه. من الصعب عليّ أن أتكلم نيابة عنه: إنه نوع من الخيانة، ولا أعتقد أنه يريد هذا. في الوقت الذي كان موته يخصّ

الجميع، إلاَّ أن حياته ملكه وحده، ومع ذلك تستطيع أن تقول إنه كان روحاً حرة تريد أن تواجه الحياة وجهاً لوجه.

كتاباته تتكلم عنه، وخياراته، وعلاقاته مع أصدقائه والناس الذين يعرفونه. لم يقل كارلو مرة إنه كان يريد أن يصبح غنياً فلم يتأثر بالإعلانات ولا ينفق الكثير على ملابسه. كان يفضّل المحلات العربية الصغيرة في الشوارع الخلفية، ويأكل الكباب بدلاً من الماكدونالدز التي لم يدخلها يوماً. كان بالتأكيد يحلم بالسفر حول العالم، كان يريد اكتشاف دولاً بعيدة وخاصة تلك التي في الجنوب، مبتدئاً ربما بفلسطين لأنه كان متأثراً كثيراً بمعاناة شعبها. لهذا السبب ترك الجامعة ولهذا السبب بعد "الخدمة العسكرية المدنية"[1] مع منظمة العفو الدولية، بدأ بالعمل من أجل أن يوفر المال لبدأ رحلته. "وماذا ستفعل بعد ذلك؟" كنت أسأله دائماً. كان يرد علي بهدوء قائلاً: "سأتدبر أمري". "إذا أردت فإنه يمكنني دائماً إيجاد عمل، أو إيجاد شخص تشاركه الطعام".

كتب بيرو سانسونيتي في كتاب نُشِر بعد بضعة أشهر من موت كارلو:

> *هل كان كارلو بطلاً؟ أو شهيداً يُترحّم عليه؟ لا - لكن لم لا؟ نحن لسنا في حرب، وليس هناك شهداء، والحملة بالتأكيد لم تكن دينية؛ لذا فهي ليست بحاجة إلى شهداء أو قدّيسين. لكن كارلو رمز لجيل ثائر في الأشكال السياسية والوجودية التي يراها،*

وفي النشاطات وأسلوب الحياة الذي يختاره. لماذا ينبغي علينا رفض هذا الرمز؟ ولماذا نهاجمه، ونقلل من قدره، وننتقده؟ هناك تفسير واحد فقط: نحن نخاف منه قليلاً[2].

نعم، الأمر مخيف أن يولد شاب في عالم ثري، ثم يعارض هذا الامتياز، ويبدي عدم موافقته، ويرفض أن يكون جزءاً من هذا النظام. لكن كارلو حرّك الناس وربما لأنه يمثّل ذلك الجزء الذي نبقيه مخفياً تقريباً. عندما يغضب، يقاوم من أغضبه، ويعترض بشجاعة على قوة عمياء ومتغطرسة، وأكبر منه.

ليس من قبيل الصدفة أن تخترع الشرطة والإعلام الوطني بسرعة شخصية رجل الشرطة الأصغر من كارلو الذي تعرّض للهجوم وبدا خائفاً. تظاهروا بأنه كان وحيداً وأنه كان تحت رحمة مجموعة من مثيري الشغب والعنف. تظاهروا بنسيان ما حدث قبل ذلك: الاستفزازات والعنف والأعيرة النارية. تجاهلوا حقيقة أن الشرطة دهسوا ابني مرتين، وقذفوه بالأحجار ورفسوه على وجهه وهو يحتضر. حرّك جسد كارلو النحيل والشاب المستسلم الجماهير أيضاً. لم يكن ذلك الوشاح الأزرق سلاحاً، ولم يكن ذلك الرباط على ذراعه النحيل سلاحاً، وطفاية الحريق التي تدحرجت عند قدمه والتقطها على بعد ثلاثة أمتار من سيارة اللاند روفر التابعة للشرطة لم تكن سلاحاً. كان استخدامها الوحيد هو محاولة نزع سلاح شخص يرفع عليه السلاح. وحتى الصور أثارت نقاشاً عند بعضهم، ومنهم أولئك الذين حاولوا تقديمه على أنه إرهابي.

من الناحية الأخرى، أصبح من السهل هذه الأيام أن تتهم شخصاً بالإرهاب. كل ما تحتاجه هو أن تختلف مع حكومتك أو مع النظام الاقتصادي الحالي ثم ستواجهك الاتهامات بعد ذلك. العديد من النشطاء الذين يواجهون حالياً القضاء في إيطاليا يعرفون هذا الأمر جيداً. ونرى اليوم العديد من الرجال والنساء الذين يكافحون من أجل استقلالية بلادهم، ويقاومون، ويوصفون بالإرهابيين، بالرغم من أن الناس قبل 60 سنة مضت كانوا يسمونهم بالأنصار.

بعد ذلك كله، أليس هذا ما يقوله بيرلسكوني؟ كل ما تحتاج أن تفعله هو أن تردد كذبة، ثم ستظهر بعد ذلك على أنها حقيقة. حاول أن تخلط هذه الأشياء مع بعضها: البرجان وأولئك الذين يقودون سيارة مليئة بالمتفجرات نحو مدرعة عسكرية. اخلط المُهاجِمين والمُهاجمين، الحقوق والظلم. لن يفهم الناس الكثير لكنهم سيصابون بالرعب. وعندما يكون الناس خائفين فإنهم لا يستطيعون التمييز بين الأبيض والرمادي، والرمادي من الأسود، وسوف يكونون على استعداد للاقتناع، بل أكثر من ذلك، سيطلبون هم بأنفسهم أن يتم إقناعهم. على سبيل المثال، يطلبون عدم التفكير في أطفال تنفجر بهم الألغام التي تعد أحد أكبر البضائع التي تصدرها إيطاليا، ولا التفكير في الانتشار السريع للمافيا، حيث قال أحد الوزراء: "نريد أن نعيش"، أو رؤية القوارب المهترئة والمليئة بالناس الهاربين من الحرب والجوع، حيث امتلك وزير آخر الحق في ردّهم فوراً إلى البحر، أو إرسالهم مرة أخرى إلى البلاد التي جاؤوا منها - أي الحكم عليهم بالموت وكذلك تمزيق الدستور الإيطالي.

obeikandi.com

وحّد كارلو الحركات الشعبية، جاء الناس إلى الميدان الذي قُتل فيه من جميع الأعمار، حيث الجميع يترك شيئاً عن تجاربهم الشخصية: من أطفال المدارس وحتى المتقاعدين، ومن مختلف الأديان، من الشيوعيين الشباب، والفوضويين، والكاثوليكيين، وناشطي المراكز الاجتماعية، وأولئك الذين ينشطون في حملات التجارة العادلة. وأهدى الكتّاب والشعراء والموسيقيون أعمالهم إليه. وسميت بعض المراكز الاجتماعية والاحتفالات باسمه. في منطقة فينيس، سمى العصاة أحد الميادين باسمه. أنا متاكدة من أنه لو اجتمع كل هؤلاء الناس فإن لديهم الكثير للحديث عنه، وسيجدون ألف سبب للانقسامات والخلافات.

لكن كارلو حقق الوحدة حيث الحاجة ماسة للوحدة! هذا لا يعني الخداع، أو فقدان الهوية، أوعدم القدرة على التعبير عن آرائك الشخصية؛ بل إنه يعني تأسيس قواسم مشتركة والانطلاق في العمل منها. كانت هي تلك الرسالة العظيمة لجنوة 2001م. وفي السنوات اللاحقة أثبتت الحركات المناهضة للحرب أن هذا ممكن الحدوث.

الحق أحادي في المصلحة المشتركة في المال والسلطة، هو يقبل البنى الهرمية دون أي نقاش ضار جداً مع أولئك الذين يفشلون. السيد يجب أن يُطاع دائماً. لا يعد اليسار أحادياً، فهو يمتلك قيماً مثالية عليا، ولهذا السبب هناك الكثير من النقاش. في أي حدث، لا أتفق مع أي رجل - من الأصغر إلى الأكبر -

يحاول الظهور داخل مجموعته، في الجرائد، وعلى التلفزيون، ويستخدم طريقة النقد، والهجوم، والتعريض والشتم ضد أولئك المعروفين أكثر منه (يحق لنا أن نتكلم هنا بصيغة المذكر). من هو الذي يستمر في الحديث عن "الانشقاق" و"الخلافات" داخل الحركة؟ ربما هم أولئك الذين لديهم كل شيء ليربحوه من حركة مرتبكة وضعيفة؟ قد يكونون أولئك الذين يبحثون عن مكانهم، أو مكانتهم العالية!

هناك الكثير من الأضرار التي حدثت باسم الأيدولوجية، وفوق ذلك كله، كل الشباب وأولئك الذين يتمتعون بروح شابة من الداخل لا يتحملون هذا الأمر أكثر من ذلك. عندما أتحدث عن جنوة 2001 م، وحول المحاكمات التي تحدث الآن، "والمحاكمات المضادة" في جريمة مقتل كارلو التي وضعت على الرف دون محاكمة، فإني ألمس الكثير من وحدة الصف وأجد العديد من الناس. لم أسمع كلمة واحدة تثير الخلاف أو الشقاق من أولئك الذين يضعون مصالح الحركة والأرض والناس في قلوبهم. خلال السنوات القليلة الماضية وبفضل كارلو، قابلت العديد من الناس، وبخلفيات مختلفة، منهم المشهور والمغمور، فهم أناس عظماء؛ لأن التزامهم ووفاءهم وأمانتهم وسلوكهم اليومي عظيم. قابلت هؤلاء الناس في الشارع، والمراكز الاجتماعية والكنائس والحفلات. نحن بحاجة فقط أن نكون مثلهم: نشمّر عن ذراعنا ونتفرغ للعمل ومواجهة المشكلات واحدة واحدة بتصميم قوي على حلّها.

obeikandl.com

كتبت سابقاً أن بيرلسوكني جعل الكذب مؤسساتياً، لكن دعونا نكون واضحين حول هذا الأمر. هذا لا يعني أنه لا أحد قبله تلاعب بالمعلومات والحقائق، ومع ذلك فقد بيّن أنه بإمكانك أن تكذب مع وجود الحصانة، وأن تقول شيئاً ثم تنكره فوراً بعد ذلك. شجّع الكذب ووفّر مساحة للكاذبين. لم يسيطر بيرلسكوني على الإعلام في بلدنا فقط بل إنه اشترى ضمائر الناس. هذا هو السبب الرئيس الذي يجعل من الضروري التخلص من نظامه وثقافته "المجانية" على وجه السرعة. لم أستخدم كلمة "نظام " بلا مبالاة. هذا ليس بسبب أن بيرليسكوني أحضر الفاشيين (المتأخرين) إلى الحكومة، أو بسبب صراع المصالح، كما لاحظ ذلك أحد الأشخاص. نحن نعيش تحت نظام يقوم فيه رئيس مجلس الوزراء بانتهاك القوانين التي وضعته فوق ومن وراء القانون، ويقحم نفسه في قنوات التلفزيون العامة وهو في الوقت نفسه يتحدث عبر شبكته التلفزيونية الخاصة، ويكمّم أفواه الصحافة والمنتقدين عندما يصر الصحفيون والسياسيون والمفكرون على فهمه أو التظاهر بعدم رؤية ما يفعله.

هذه هي الأسباب التي تجعلني أعتقد أنه لا فائدة من معارضة بيرليسكوني إذا أنت لم تفضح وتهزم "البيرليسكونية" قبل ذلك. وهذا أثّر على كل شيء: من برامج التلفزيون إلى المناهج الدراسية. إنه أسلوب حياة، أو طريقة في النظر إلى العالم والعلاقة بين الشعوب، حتى بين العديد من منافسيه الضعفاء؛ في

حين أن هذا كله مسألة تتعلق بصراع المصالح الشخصية. العديد من الرفقاء المخلصين لا يتمتعون بالحصانة.

نجحت الحركة المضادة للحرب بتوحيد قطاع عريض من المنظمات والجمعيات والأفراد، لكننا بحاجة إلى توضيح ما الذي يجب فعله من أجل إيقاف الحرب، وما هي الأشياء التي سنتخلى عنها بمحض إرادتنا. وبعد تأسيس فكرة أن السلام هو قيمتنا العظيمة والحق الرئيس الذي دونه تفقد الحقوق الأخرى كل معانيها، وبعد فهم أنه إما أن يعيش الجميع السلام دون استثناء أو لا يعيشه أحداً، وأننا مواطنون عالميون لا يعيشون في بيت زجاجي، أعتقد أن علينا أخذ القرار والتصرف وفقاً لذلك وبانسجام تام. أعتقد أنه يجب أن نعطي هذه الكلمة السلام Peace محتوىً ومضموناً ونجعلها واقعاً ملموساً على أساس الخيارات اليومية والتصرفات وحتى اللحظات.

نستطيع أن نفعل ذلك منذ لحظة ارتداء ملابسنا في الصباح وحتى وقت ركوبنا في الحافلة أو القطار أو الذهاب إلى التسوق أو عندما نقرر مكان إجازتنا. عدا ذلك، فإن الكلمة ستبقى مجرد كلمة، مجموعة عقيمة من الحروف، وسيستمر البيرلسكونيون في السيطرة على العالم.

أيضاً، نحن بحاجة إلى أن نسأل أنفسنا حول معنى أن نكون مع السلام وضد العنف. أعتقد أننا بحاجة إلى أن نكون غير منافقين عندما نتحدث عن العنف. ينبغي أن نفرّق بين العنف الذي

يقوم به من يهاجِم وبين العنف الذي يقوم به من يدافع عن نفسه، والعنف الذي يقوم به من يستغِل ويضطهِد، والعنف الذي يقوم به من يعارض هذا الاستغلال والاضطهاد. الأنصار الذين حاربوا الفاشية في كل أوروبا سمحوا لنا كلنا في العيش بالرغم من أنهم استخدموا العنف. دعونا نتذكر ذلك، وألا نفسد ذكراهم باحتفالات زائفة ومنافقة.

لكن ذلك النوع من العنف ليس كافياً في عصرنا اليوم لمواجهة الأسلحة القوية. نعرف ذلك لأننا نراها أيضاً. لا يجب أن نخلط بين المقاومة والإرهاب، ولا يجب أن نخلط أيضاً بين من يفجّر نفسه لأنه لا مستقبل لديه، وبين من يعقد الاجتماعات لاتخاذ قرارات في إبادة شعوب كاملة. أنا متأكدة تماماً أننا لا نستطيع أن نحدث أي سلام بهذه الطريقة.

رفض كارلو الحياة الاستهلاكية، ورفض أن يحصل على درجة في سلم الوظيفة إذا كانت تسبّب الضرر على الآخرين، وحتى وإن كان يتضور جوعاً فإنه لن يرضى بأن يكون عسكرياً يحارب. ها أنذا أعود مرة أخرى للحديث عنه، لكن كما قلت سابقاً، هو من أعطاني هذا الصوت. تعلمت هذا من المرأة الشجاعة إبي دي بونافيني، وهي إحدى أمهات بلازا دي مايو[3] Plaza de Mayo. التي قالت يوماً: "لقد ولدونا أطفالنا" أعطتني يوماً شارة شبيهة مما يلبسنه هؤلا النسوة من وشاح على رؤوسهن ومكتوباً عليها أسماء أطفالهن "المختفين". وبالرغم من أني لا أحب الستارات

والملصقات إلاَّ أنني لبستها بسبب أنني أشعر أن تلك العلاقة تمثلني وأنتمي لها. كان الكثير منا هناك إلى الدرجة التي لا يمكن فيها عدّنا.

منذ ذلك الحين، قابلت العديد من الأمهات (وليس فقط من أمريكا اللاتينية) في تنقلاتي من مدينة إلى أخرى، متذكرة جميع الأولاد والبنات الذين قتلوا بواسطة الشرطة في إيطاليا، أو القضايا التي ضلّلت فيها الشرطة أو عناصر القضاء أو الدولة طريق العدالة. بدأت بجمع القائمة الطويلة لحالات الوفاة الشبيهة بكارلو التي لم تجد كلمة الحقيقة أو العدالة داخل المحكمة.

حدث الشيء نفسه لأولئك الذين ماتوا في مذابح الفاشية التي أدمت بلادنا خلال السبعينيات. قابلت أيضاً أمهات الجنود الذين قتلوا في أوقات السلام، وأمهات الأولاد الذين ماتوا في الحروب حيث ما زلن يناضلن من أجل سحب القوات من الدول التي أرسلوا إليها "لنشر الديموقراطية".

عندما كنت شابة كنت أحب الغناء، وبالرغم من أني لم أعد أغني، إلاَّ أنني ما زلت أتذكر أغنية من كلمات الشاعر إيتالو كالفينو اسمها "حيث يطير النسر":

... ذهب نسر إلى أمّ
لكن هذه الأم قالت "لا!"
طر بعيداً يا نسر، طر بعيداً
سيذهب أولادي إلى فتاة جميلة

تؤيهم إلى فراشها
لن أرسلهم للقتال
طر بعيداً يا نسر...
طر بعيداً عن أرضي...

ترجم النص: **توم بيهان**

(1) كانت الخدمة العسكرية إجبارية في إيطاليا حتى وقت قريب. ومع ذلك فإن حرية القيام بـ " خدمة عسكرية مدنية " موجودة، حتى وإن كان على المرء أن يخدم ستة أشهر إضافية.

(7) Sansonetti, Piero (2002) Dal ?68 ai no-global , Baldini and Castoldi, Milan, p 73.

(1) هؤلاء هن أمهات الرجال الذين اختفوا على يد الدكتاتورية العسكرية الأرجنتينية في السبعينيات، الذين كانوا لسنوات عديدة ينظمون مظاهرات أسبوعية خارج القصر الرئاسي في بيونس آيرس يطالبون بالعدالة.

obeikandl.com